القيم الأخلاقية في الرواية التاريخية (موازنة بين جرجي زيدان ونجيب الكيلاني)

Moral Values in Historical Novels
A Comparison Between Jurji Zaidan and Najib Al-Kilani

Uzair Ul Amin
PhD Scholar, Department of Arabic, University of Peshawar
Email: uzairulamin1@gmail.com
Dr. Khansa Al-Jaje
Lecturer, Department of Arabic, University of Peshawar
Email: khansaaljaje@uop.edu.pk

Abstract:
The historical novel holds a significant position in modern literature due to its profound impact on the reader. A reader well-versed in historical events can appreciate the authenticity of the narratives by comparing them to the history books they have consulted. Conversely, a reader unfamiliar with historical occurrences, such as a young or emerging reader, has not yet thoroughly engaged with history and its events. Therefore, much of what they learn about history comes from these historical stories that introduce them to the subject in an engaging and captivating manner, drawing them in with various events and characters that represent the moral values of that period.
The researcher, due to his current work on his doctoral dissertation, discovered various topics worthy of study and investigation in the historical novels of Jurji Zaidan. He recognized, as have other writers and researchers, Zaidan's bias against Islamic history and his efforts to distort this history and its events. This stands in contrast to another writer who possesses a clear Islamic character in his literature, Dr. Najib Al-Kilani. As a result, the researcher decided to find a balance between their two styles by selecting a novel from each author and attempting to extract the moral values emphasized by both in order to arrive at as fair a conclusion as possible.
Keywords: Jurji Zaidan, Najib Al-Kilani, Moral Values

تمهيد:

تحتل القصة التاريخية مكانة مهمة في الأدب المعاصر لما لها من تأثير كبير على القارئ؛ فالقارئ العالم بأحداث التاريخ سيدرك صحة ما يقرأ من قصص حين يقارنها بما يعلمه سابقاً من كتب التاريخ التي كان له فيها اطلاع، أما القارئ الجاهل بأحداث التاريخ كالقارئ الشاب أو الناشئ فهو لم يطلع

بعد على التاريخ وأحداثه بالشكل الشامل فلذلك سيكون معظم ما يتعلمه عن التاريخ وأحداثه هو ما يقرأه في هذه القصص التاريخية التي تقدّم التاريخ له بشكل جميل مشوّق يجذبه بأحداث متنوعة وشخصيات تجسد له القيم الأخلاقية لذلك الجزء من التاريخ. والباحث بحكم كتابته الحالية لبحث الدكتوراه وجد كثيراً من المباحث التي تستحق الدراسة والاستقصاء في قصص جرجي زيدان التاريخية التي رأى بنفسه –كما رأى غيره من الكتاب والباحثين– تحامل زيدان على التاريخ الإسلامي ومحاولة تشويهه لهذا التاريخ وأحداثه، في مقابل كاتب آخر له صبغة إسلامية واضحة في الأدب وهو الدكتور نجيب الكيلاني، فعزم الباحث على عقد موازنة بين أسلوبيهما باختيار رواية لكل منهما ومحاولة استخلاص القيم الأخلاقية التي أبرزها كل واحد منهما ليخرج البحث بنتيجة منصفة قدر الإمكان.

كلمات مفتاحية: جرجي زيدان، نجيب الكيلاني، عذراء قريش، عذراء جاكرتا، القيم الأخلاقية.

حدود البحث: البحث يُحد بدراسة رواية واحدة لكل من الكاتبين، وهما: "عذراء قريش" لجرجي زيدان، و"عذراء جاكرتا" لنجيب الكيلاني، والدراسة منحصرة في الجوانب الأخلاقية التي تسود مجتمعي الروايتين المختارتين.

منهج البحث: يتبع البحث المنهج الوصفي التحليلي فقد حاول الباحث تحليل الأحداث وأفعال الشخصيات وحدودها ليستخلص القيم الأخلاقية التي يريد الكاتب إيصالها للقارئ.

وقد قُسّم البحث **لثلاثة محاور، المحور الأول:** يتناول القيم الأخلاقية بتعريف الأخلاق وعلم الأخلاق، **والمحور الثاني:** وفيه القيم الأخلاقية التي استخلصها الباحث من رواية جرجي زيدان "عذراء قريش"، **والمحور الثالث:** القيم الأخلاقية التي استخلصها الباحث من رواية نجيب الكيلاني "عذراء جاكرتا"، ثم **الخاتمة** وفيها النتائج التي توصل إليها البحث وهي: أن جرجي زيدان صوّر مجتمع الصحابة مجتمعاً مليئاً بالحسد والحقد والأنانية وسفك الدماء، وشوه معنى الحياء والعفاف، في حين أن نجيب الكيلاني بيّن أن المجتمع في روايته ينقسم لقسمين: قسم ملحد شيوعي منتهز للفرص لا يعبأ بأي قيم أخلاقية في سبيل الوصول لمنافعه ومصالحه الشخصية، وقسم مسلم يدعو لدينه فهو مجتمع طاهر نقي، يُعلي من شأن القيم الأخلاقية الإسلامية كالصدق والوفاء والعفاف والشجاعة بقدر إمكانه.

المحور الأول: القيم الأخلاقية

الخُلْقُ والخُلُقُ في لسان العرب هو: (السّجية، وهو الدين والطبع، وحقيقته أنه لصورة الإنسان الباطنة وهي نفسُه وأوصافُها ومعانيها المختصةُ بها بمنزلة الخَلْقِ لصورته الظاهرة وأوصافِها ومعانيها، ولهما أوصافٌ حسنة وقبيحة، والثواب والعقاب يتعلقان بأوصاف الصورة الباطنة أكثر مما يتعلقان بأوصاف الصورة الظاهرة، ولهذا تكررت الأحاديث في مدح حسن الخلق في غير موضع. والخِلْقَة: الفطرة، والطبيعة والسليقة...)[1]

والجرجاني يرى أن الخلق عبارة عن (هيئة للنفس راسخة، تصدر عنها الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر ورويّة، فإن كانت الهيئة بحيث تصدر الأفعال الجميلة عقلاً وشرعاً بسهولة سُمّيت الهيئة خلُقاً حسناً، وإن كان الصادر منها الأفعال القبيحة سُمّيت الهيئة التي هي المصدر خلقاً سيئاً.)[2] وزاد عليها الأستاذ علوي السقاف بأنها "تكون في بعض الناس غريزة وطبعاً، وفي بعضهم لا يكون إلا بالرياضة والاجتهاد).[3] والتخلق هو التكلف بالتحلي بخلق ما، وهو الذي عناه السقاف بالرياض والاجتهاد، فإن اقتصار الإنسان على العلم بالخلق الحسن والرديء ليس كافياً ما لم يتخلق به الإنسان فكما قال د. السيد محمد بدوي: (إن العلم بالفضيلة لا يكفي في تحصيلها والتزود بها، فكثيرون من يعلمون أوجه الخير ويدركونها إدراكاً تاماً ثم يحيدون عنها إلى أوجه الشر والرذيلة)[4]. فالعلم بالأخلاق شيء والتخلق بها شيء آخر.

وقد أورد د. محمد يوسف موسى تعريفات عدة في كتابه، فذكر قول بعض العلماء بأنه (علم العادات) و(علم الإنسان) أو (علم الخير والشر) و(دراسة الواجب والواجبات) واختار بعد ذلك تعريفاً حاول فيه أن يشمل ما كان ناقصاً في تعريفات من قبله فقال: (إنه علم القواعد التي تحمل مراعاتها المرء على فعل الخير وتجنب الشر، ويصل بالعمل بها للمثل الأعلى للحياة) أو (علم القواعد التي تسير عليها إرادة المرء الكامل في أعماله ليصل للمثل الأعلى)."[5] ويضيف أحمد أمين في كتابه الذي عنونه بالأخلاق جانباً آخر وهو الغاية من السلوك أو العمل فيقول: (هو علم يوضح معنى الخير والشر، ويبين ما ينبغي أن تكون عليه معاملة الناس بعضهم بعضاً، ويشرح الغاية التي ينبغي أن يقصدها الناس في أعمالهم، وينير السبيل لعمل ما ينبغي.)[6]

ولعل كثيراً من الناس يعتقد أننا حين نتكلم عن الأخلاق فنحن نتكلم عن أمر لا خلاف عليه، فكلنا نتفق أن هناك أخلاقاً حسنة وأخلاقاً قبيحة، لكننا بعد البحث والتروي سنجد أن الأخلاق قد تتغير من مجتمع لآخر، ومن زمن لآخر، والقارئ المتمعن للتحولات المجتمعية عبر التاريخ يدرك أن ضمير المجتمع ليس دائماً مستقيماً؛ فكثيراً ما شط وخرج عن الحق، والله عز وجل يقول: {قُلْ لا يَسْتَوِي الخَبِيْثُ والطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الخَبِيْث}"[7] فلذلك يرى المسلم أن الأخلاق التي تُستقى من منهج سماويّ إلهيّ تجد صدىً أعمق وأقوى من أي أخلاق أخرى، فالوازع الديني عند المسلم يجعله يبذل أقصى جهده في أن يلتزم بحسن الأخلاق في كل أحواله، وفي جميع الظروف التي تحيط به، أما القوانين الأخلاقية التي يضعها المجتمع ولا تتصل بسبب إلهي ديني فنجد الإنسان يحاول قدر إمكانه التَّفَلُّتَ منها والالتفات عليها، ولو غابت عين الرقيب المجتمعي وأمنَ الإنسان العقوبة المجتمعية فسنجد الإنسان ينقلب لشيء

هو أبعد ما يكون عن الإنسانية والأخلاق القويمة؛ ولسبق الحيوانات المفترسة في شدة فتكه بأخيه الإنسان، وهذا معروف ومعلوم ولا حاجة لذكر شواهد له.

والغرب يغفل عن عمد التطرق للأثر العظيم للأخلاق التي جاء بها الإسلام فإننا (إذا استعرضنا كتب الأخلاق التي كتبها كتاب الغرب وجدنا فيها ثغرة كبيرة، فهؤلاء الكتاب في تأريخهم للمذاهب الأخلاقية، قد عرضوا لهذه المذاهب في العصور اليونانية القديمة، ثم في الديانتين اليهودية والمسيحية، وقفزوا منها فجأة إلى المذاهب الأخلاقية في العصور الحديثة في أوروبا أي منذ عصر النهضة إلى وقتنا الحاضر، بدون أن يعرجوا في قليل أو كثير على ما يتصل بالقانون الأخلاقي في الإسلام. ومع ذلك فإن ما جاء به القرآن في مجال الأخلاق ذو قيمة عظيمة، لا بالنسبة للحياة العملية للمسلمين أنفسهم فحسب، بل بالنسبة لأبناء البشر جميعاً. ومعرفة القانون الأخلاقي كما جاء به القرآن يكمل النقص في تاريخ المذاهب الأخلاقية؛ ويفتح آفاقاً جديدة في دراسة المشكلة الأخلاقية ذاتها، وفي حل كثير من المسائل والصعوبات التي تثيرها.)[8] لأن موضوع الأخلاق ليس منحصراً في مجال واحد بل (هو كل ما يتصل بعمل المسلم ونشاطه وما يتعلق بعلاقته بربه، وعلاقته مع نفسه، وعلاقته مع غيره من بني جنسه، وما يحيط به من حيوان وجماد.)[9] وقد لخص الإمام ابن قيم الجوزية رحمه الله ذلك فقال: (الدين كله خلق، فمن زاد عليك في الخلق زاد عليك في الدين). ثم بيّن أن (حسن الخلق يقوم على أربعة أركان لا يتصور قيام ساقه إلا عليها:

الصبر والعفة والشجاعة والعدل. فالصبر: يحمله على الاحتمال وكظم الغيظ، وكف الأذى، والحلم والأناة والرفق، وعدم الطيش والعجلة. والعفة: تحمله على اجتناب الرذائل والقبائح من القول والفعل، وتحمله على الحياء، وهو رأس كل خير، وتمنعه من الفحشاء، والبخل والكذب، والغيبة والنميمة. والشجاعة: تحمله على عزة النفس، وإيثار معالي الأخلاق والشيم، وعلى البذل والندى، الذي هو شجاعة النفس وقوتها على إخراج المحبوب ومفارقته، وتحمله على كظم الغيظ والحلم. والعدل: يحمله على اعتدال أخلاقه، وتوسطه فيها بين طرفي الإفراط والتفريط، فيحمله على خلق الجود والسخاء الذي هو توسط بين الجبن والتهور، وعلى خلق الحلم الذي هو توسط بين الغضب والمهانة وسقوط النفس. **ومنشأ جميع الأخلاق الفاضلة من هذه الأربعة.**

ومنشأ جميع الأخلاق السافلة، وبناؤها على أربعة أركان:

الجهل والظلم والشهوة والغضب. فالجهل: يريه الحسن في صورة القبيح، والقبيح في صورة الحسن، والكمال نقصاً، والنقص كمالاً. والظلم: يحمله على وضع الشيء في غير موضعه، فيغضب في موضع الرضى، ويرضى في موضع الغضب، ويجهل في موضع الإقدام، ويقدم في موضع الإحجام، ويلين

في موضع الشدة، ويشتد في موضع اللين، ويتواضع في موضع العزة، ويتكبر في موضع التواضع. والشهوة: تحمله على الحرص والشح والبخل، وعدم العفة والتهمة، والجشع، والذل والدناءات كلها. والغضب: يحمله على الكبر والحقد والحسد والعدوان والسفه.)[10]

ويرى د. محمد عبد الله دراز أنه لا مكان للأخلاق بدون عقيدة، والعقيدة تتصل بالأخلاق ذاتها، ومعناها الإيمان بالحقيقة الأخلاقية كحقيقة قائمة بذاتها "تسمو" على الفرد، و"تفرض" نفسها عليه بغض النظر عن أهوائه ومصالحه ورغباته.[11]

المحور الثاني: القيم الأخلاقية في رواية جرجي زيدان "عذراء قريش":

صدرت رواية جرجي زيدان "عذراء قريش"- وهي الرواية الثالثة من سلسلة روايات تاريخ الإسلام- عام ١٨٩٨م عن دار الهلال للطباعة والنشر في مصر، وهي أقدم نسخة استطاع الباحث الوصول إليها، وهذه الرواية تتناول الفترة الزمنية المتعلقة بمقتل عثمان رضي الله عنه والخلاف الذي نشب بين علي من طرف وطلحة والزبير والسيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنهم أجمعين، ثم الخلاف بين علي ومعاوية رضي الله عنهما. وقد استخلص الباحث عدة قيم أخلاقية من خلال الأحداث ورسم الشخصيات في هذه الرواية، وهي كالتالي:

1. الكرم وقرى الضيف:

يبين زيدان عادات العرب في البادية ومن أهمها الكرم وقرى الضيف، فيقول: "يسرع الشيخ عامر ليعود مبكراً من الرعي في البادية ليقوم بخدمة القادمين لمسجد قباء يجلب لهم الماء ويعينهم على نصب خيمهم وسقي ماشيتهم ورحالهم"[12]

2. الأمانة والخيانة:

يُعرّض الكاتب جرجي زيدان بكبار الصحابة الكرام كعلي بن أبي طالب والزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله رضي الله عنهم، فيقول على لسان نائلة زوج عثمان رضي الله عنه: (أخافني مجيء هؤلاء فإنهم قلما جاءونا إلا لتأنيب أو تهديد) قالت: ومن هم؟ قالت: (علي بن أبي طالب، والزبير بن العوام، وطلحة بن عبيد الله وهم وجوه الصحابة ومن الطامعين في الخلافة وكل يريدها لنفسه، وما زلنا منذ تولاها أمير المؤمنين لا يهدأ لنا بال مما يتهمونه به من الأعمال...)[13] وذكر في موضع آخر أن كلاً منهما يريد الخلافة لنفسه[14] وقد ألح الكاتب على أن رغبة محمد بن أبي بكر في قتل عثمان إنما كانت لأنه خشي أن يرغم أسماء على الزواج من مروان ابن عمه فيقول: (صار محمد بن أبي بكر إلى خلع عثمان أو قتله أميل (لأنه قد يكون سبباً في خسارته لأسماء)[15]

فهؤلاء الثلاثة الذين هم من العشرة المبشرين بالجنة وممن كان لهم عند رسول الله صلى الله عليه وسلم المنزلة العالية يصورهم جرجي زيدان بأنهم طامعين في الخلافة وكلٌ يريدها لنفسه، فيتحول الخلاف بينهم لخلاف دنيوي مقيت، يُشعر القارئ بالنفور من هؤلاء ويجعله يشكك بكل ما يصدر عنهم من أفعال ويوجه لهم أصابع الاتهام في تخليهم عن الغرض الأساسي من وجودهم في هذه الحياة وهو عبادة الله ونشر دينه فتحولوا فجأة لمتقاتلين على السلطة والملك. وهذا يكسر في نفس النشأ المسلم القارئ لهذه الرواية الإيمان بالقيم الأخلاقية من الوفاء والإخلاص والرحمة والمحبة التي أثبتت كتب التاريخ أنها لم تفارق هؤلاء حتى في قتالهم لبعضهم بعضاً، وصوّرت العلاقة بينهم كأن المنافسة والمخالفة كانت بينهم قديماً وكانت مزيجاً من الحسد والحرص، وليست أمراً عارضاً حدث باجتهادهم في أمر جليل وفتنة عظيمة وقعت، كانت سبباً في اختلاف هؤلاء الذين كانوا إخوة رحماء بينهم قبل هذا الاجتهاد. وتصوير الكاتب للقدوة العظيمة المتمثلة بهؤلاء الصحابة بهذه الصورة من الضعف وحب الدنيا والقتال من أجلها يطيح بكثير من القيم الأخلاقية التي كانت من أهم ما جاء به الوحي في دين الإسلام.

3. الحياء والعفاف:

يتخبط الكاتب جرجي زيدان في مفهوم هذا الخلق في روايته هذه فنراه يلح على جمال أخلاق بطلة روايته "أسماء" ويبين لنا مفهومها للأخلاق، (فلم تكن أسماء تعتد بزخارف الدنيا ولكنها كانت تهوى الشهامة وكرم الأخلاق فلم يقع مروان من نفسها موقع القبول)[16]مع توقف متكرر لوصف محاسنها وجمالها اللافت لكل من يراها، فهي –كما يريد تصويرها لنا– جميلة قلباً وقالباً، وهو يركز على حيائها وحشمتها وعفافها، لكنه لا يرى بأساً في أن يلمس علي رضي الله عنه الفتاة ويمسك يدها لأنه يواسيها[17] ونحن لا ندري هل زيدان جاهل بتعاليم الإسلام وما فيه من حرمة لمس غير المحرم للمرأة، وأنه يخالف قيمة الحياء والعفاف؟ أم هو يريد منا أن نتقبل أن علياً حقاً يفعل هذا الأمر ويراه جائزاً؟! وفي كلتا الحالتين فإنها سقطة في هذه الرواية. ولم يكتف زيدان بعلي فقط، بل أسماء تصافح محمد بن أبي بكر[18]، وهو يمسك يدها في موقف آخر (فلما رأى محمد دموعها انفطر قلبه شفقة وأمسك بيدها وجوارحه تختلج)[19] وفي موقف آخر: حين حاول مروان أن يمسك يدها ليكلمها فجذبت يدها، لكن بعد ذهاب مروان أمسك محمد بيدها وأرجعها إلى غرفتها[20] ولم يكن الأمر مع أسماء فقط، فزيدان يصف موقفاً بين أسماء ومروان ومعهما نائلة زوجة عثمان ابن عمه، فيقول: "فضحك مروان وظنها تمزح –يقصد نائلة–، وأمسك بيدها حتى تواريا عن أسماء، وهمس في أذنها قائلاً...."[21] ومن المستغرب أن جرجي زيدان يرى أن إمساك مروان بيد فلانة وفلانة أمر طبيعي لا يُتوقف عنده في المجتمع الإسلامي، وهذا مما لا يتصوره طفل مسلم بله كاتب أو عالم بالتاريخ الإسلامي. والقيمة الأخلاقية التي يظهرها الكاتب هنا تبدو

للقارئ الغافل أن هذا المجتمع الذي كان لزمن قصير جداً مجتمعاً بدوياً يرى هذه السلوكيات ليست من المروءة وليست من العفاف، فكيف بعد أن جاء الإسلام بأحكامه الفقهية وتتميمه لمكارم الأخلاق! فهذا المجتمع الذي يتحدث عنه الكاتب هو مجتمع الصحابة الذين هم أنفسهم حملوا الدين وشرائعه وأحكامه ونشروها بين الناس في مشارق الأرض ومغاربها. فهل كان هذا المجتمع بهذا الوصف الذي في هذه الرواية يوافق صفات المجتمع العفيف؟؟!! أم أنه مشهد من مشاهد الأفلام السينمائية التي تحاول أن تقدم لنا صورة لمجتمع من القرون الماضية فتقدمه لنا بإطار ومفاهيم لمجتمعاتنا المعاصرة التي ابتعدت في معظم أخلاقها عن دينها، وكانت ولا تزال تنظر بشوق لذلك المجتمع البعيد الذي كان مثالاً للحياء والعفاف والأخلاق الجميلة التي كانت لا تزال حديثة العهد بالرسالة والرسول صلى الله عليه وسلم، وتسعى مجتمعاتنا المعاصرة هذه لأن تُرجع تلك القيم الأخلاقية لأفرادها لتتخلق بها وتُصلح ما فسد منها!

ويزداد تخبط زيدان فيصف موقف أسماء في مجلس علي وهي تخاطب المهاجرين والأنصار، فتقول: (يا معشر المهاجرين وخيرة أصحاب الرسول...) فأصغى الجميع وهم معجبون لتلك الجرأة من فتاة صغيرة بين يدي كبار الصحابة، ولبثوا صامتين فاستأنفت حديثها...[22] وهي تفعل الأمر نفسه في مجلس الخليفة عثمان مرات عديدة، فيقول: (فسار أبناء الصحابة وقد هاج الناس وماجوا، وكلهم يلتفت إلى أسماء، أما هي فسارت بين الجموع وخرجت ولم يعد يراها أحد)[23] وفي موقف آخر: (تستدير لتخرج والحاضرون يتبعون أسماء بأبصارهم ويعجبون بما سمعوه وبما ينظرون من لين قوامها واسترسال شعرها وحسن خطاها !!!)[24] هكذا الكاتب يصور أسماء حاسرة الرأس مسترسلة الشعر... وهذا أمر يثير الاستغراب في المجتمع المسلم الذي لا يزال حديث عهد بالدعوة ونزول الحجاب والالتزام به، والأشد استغراباً اتباع هؤلاء الجالسين لها و"للين قوامها واسترسال شعرها وحسن خطاها" فهل هؤلاء الجالسون هم الصحابة؟ أم التابعين؟ وهل هذه هي أخلاق هؤلاء؟ وقد رُوي عن عنترة بن شداد الشاعر الجاهلي الذي لم يسعفه حظه في التعرف على الإسلام وأخلاقه فيقول:

وَأَغُضُّ طَرْفِي مَا بَدَتْ لِي جَارَتِي ... حَتَّى يُوَارِيَ جَارَتِي مَأْوَاهَـا
إِنِّي امْرُؤٌ سَمْحُ الخَلِيقَةِ مَاجِـدٌ ... لا أُتْبِعُ النَّفْسَ اللَّجُوجَ هَوَاهَا[25]

فكيف بالصحابة والتابعين رضوان الله عليهم الذين كان يغص بهم مجلس علي أو مجلس عثمان رضي الله عنهما!!! ومحمد بن أبي بكر يقترح على الحسن أن تحضر أسماء مجلس علي وحديث القوم في أمر البيعة متنكرة بزي رجل لأجل أن تنشغل عن حزنها على أبيها بما تراه في مجلس علي[26] ولا أدري ما الحكمة من جعل فتاة تنشغل عن حزنها بالذهاب لمجلس رجال بدلاً من تمضية الوقت مع زوجة علي

مثلا أو أي مجلس نساء!! وهو الأمر الطبيعي في المجتمعات المسلمة. بل هو الأمر الفطري في النفس البشرية إذ إن المرأة ترتاح في حزنها للبكاء مع مثيلاتها من النساء اللواتي هن أقدر على أن يشاركنها عاطفة الحزن فيبكين لبكائها ويستطعن تفهم حزنها والتخفيف عنها، أما جلوسها في مجلس رجال يتناقشون في أمر البيعة للخليفة الجديد بعد مقتل الخليفة السابق، فهو أمر بعيد عن الوضع الطبيعي القريب للواقع.

وهنا يبرز سؤال ما هي القيم الأخلاقية التي برزت من خلال اختيار الكاتب لبطلة روايته أسماء؟

فالرواية كلها قائمة على شخصية رئيسية هي عنوان الرواية نفسها: "عذراء قريش" يزعم الكاتب جرجي زيدان أن "أسماء" هي بنت أحد كبار الصحابة، وإلى آخر هذه الرواية لم يثبت الكاتب هذا الزعم، ولم يستطع إثبات أن نسبها قريشي ولم يكن هناك أي إشارة إلى من هو هذا الصحابي الكبير؟ وقد انتهت الرواية وقد ترك زيدان القارئ مخيب الآمال في معرفة سر هذا النسب المزعوم، ولسان حاله يتساءل: ما الفائدة من هذه المعلومة عن هذه الشخصية الروائية في سياق الأحداث كلها؟ فلقد استخدم الكاتب شخصيات ومواقف وأحداثاً متعددة في هذه الرواية تتعلق بهذا الأمر ولم يجد له مخرجاً أو حلاً في آخر الرواية.

ومع ذلك كله فقد اختار الكاتب أن يسند إليها وهي فتاة حديثة السن مسؤوليات عظام كأنها شخص من النخبة في المجتمع المدني في ذلك الوقت ومن أهل الحل والعقد!! فمهمتها الأولى هي الدفاع عن الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه وتبرئة ساحته أمام كبار الصحابة (طلحة والزبير) وأم المؤمنين عائشة رضي الله عنهم أجمعين، هؤلاء الأربعة الذين هم من أكبر وأعلم وأفقه الصحابة وهم مع ذلك من أقرب الناس لعلي ويعرفونه لسنوات طويلة يحتاجون حين يقع بينهم خلاف أن تأتي فتاة حديثة السن لم يمر على وجودها في المدينة إلا أيام معدودات!! ولم تعرف علياً من قبل يوماً؛ لتحل الأمر بينهم أو لتدافع عن أحدهم أمام الآخرين، وهي قد قابلته لدقائق قليلة في كل مرة التقت فيه خلال أيام تعد على أصابع اليد الواحدة، وفي هذا الأمر استخفاف بعقل القارئ لا يخفى، وتصوير لمجتمع المدينة المنورة مدينة النبي صلى الله عليه وسلم التي كان لها اسم ومنزلة في الفقه والعلم لا تخفى على أحد، فقد اشتهر قولهم: يُنظر لعمل أهل المدينة، فإن رأوا أن أهل المدينة يعملون هذا الأمر فيتلقونه بالقبول، وإلا فلا، فهذه المدينة هي بنظر جرجي زيدان مجتمع ضعيف يخلو مِمَّنْ يقوم بهذا الدور فيضطر إلى قبول عمل هذه الفتاة، وكأن مجتمع الصحابة مهاجرين وأنصار بل وتابعين اختفى فجأة ولم يعد هناك من امرئ يصلح لهذا الأمر إلا هذه الفتاة! ولا أدري ما الذي دفع الكاتب لهذه الحبكة المتهالكة الواهية؟ ولم أجد جواباً ممكناً لهذا السؤال إلا أنه أراد أن تكون بطلة روايته أنثى ليزيد من عدد قارئي روايته. ولم يكتف

بذلك بل أوصل الأمر بها إلى أن ترى أن مسؤوليتها هي إنقاذ جيش علي مما وصفه من مؤامرات معاوية وعمرو بن العاص –رضي الله عنهم أجمعين– وما في وصفه من همز ولمز فيهما وفي نواياهما، وكأنهما الشر المحض. وجرجي زيدان يرسم صورة مجتمع المدينة المنورة أنه لو اتبع رأي أسماء لسلم ونجا، وكأنها امرأة طاعنة في السن، عالمة ببواطن الناس وسرائرهم، وخبيرة في دهاليز السياسة، فيقول عن محمد بن أبي بكر (أيقن أنهم لو انصاعوا إلى رأيها لكانوا تجنبوا هذه الحروب).[27]

وهكذا فقد حفلت رواية "عذراء قريش" بتحريف للقيم الأخلاقية الإسلامية التي يجب أن تُقدم للنشء المسلم عبر قصص تاريخه العظيم، وصوّر الكاتب المجتمع المسلم مجتمعاً مليئاً بالخداع والغش والحسد والتهاون في سفك الدماء، وتساهل في جانب الحياء والعفة عند المرأة خاصة، باختياره أحداثاً بحبكة ضعيفة لم تقدم نهاية يستفيد القارئ منها في موعظة أو حكمة أو حتى على الأقل نهاية مشجعة أو كاشفة لما غمض من أحداث.

المحور الثالث: القيم الأخلاقية في رواية نجيب الكيلاني "عذراء جاكرتا":

قدّم نجيب الكيلاني في روايته "عذراء جاكرتا" صورة عن الصراع الدامي بين الفكرين المتضادين الفكر الإسلامي والفكر الشيوعي على أرض إندونيسيا وخاصة عاصمتها جاكرتا، وعبر عن مأساة الشعب الإندونيسي في ظل تلك الظروف الصعبة وما حل من الفساد والدمار في تلك الجزر الخضراء الجميلة.

يحكي كيف كانت الظروف قبل الانقلاب الشيوعي من الفقر والبؤس وفساد الأحوال وكيف كانت إندونيسيا بمثابة غابة السباع فالحزب الشيوعي الإندونيسي مسيطر على أمور السلطنة، وعلى الرئيس نفسه، والشرطة، والمليشيات، والمحكمات، وسلطات الأمن كلها تحت تصرف أيادي خفية. الصحف والمجلات والإذاعات حتى السنيما لم تسلم من تصرفات رجال الحزب، كل من كان على خلاف مع الحزب إما صريع أو مختطف أو خلف أسوار السجن يعذب بأنواع العذاب دون محاكمة أو تحقيق.

وفي إحدى الليالي خرج رجال الحزب الشيوعي الإندونيسي في الجيش بأمر القائد وقاموا بقتل الجنرالات حتى سيطروا على الأمر وقاموا بمذبحة بشعة في جاكرتا، قتل الألوف من رجال الدين ومن خالف الحزب الشيوعي، حتى قام أحد الجنرالات بالثورة ضدهم بمساعدة الجيش وعدد كبير من العامة اجتمعوا إليه وأخمد نار الثورة الشيوعية.

وقد استخلص الباحث القيم الأخلاقية التي حوتها هذه الرواية وهي كالتالي:

1 . الحياء والعفاف:

تقوم بطلة الرواية عذراء جاكرتا فاطمة بنت حاجي محمد إدريس بدور امرأة مسلمة إندونيسية، يقدمها لنا الكاتب فتاة عذراء في حوالي العشرين من عمرها، أجمل ما فيها عيناها اللتان تشرقان حيوية وإيمانا وجلالا، وكانت طويلة الأكمام ترتدي على رأسها شالا أبيض تخفي شعرها، ويبرز وجهها المتألق النضر،[28] كل هذه الصفات أساس في الفكرة الإسلامية التي تعتمد الفضيلة، فأكمامها الطويلة وشالها الأبيض ترمزان إلى الحجاب الذي هو شعار المرأة المسلمة العفيفة الموصوفة بالحياء.

وفي موقف مع الزعيم: ربَّتَ الزعيم على كتفها قائلا "عزيزتي" فانتفضت وابتعدت عنه قائلة: "لا تلمسني."[29] ولما علمت بمكيدة رجال الحزب من أنهم ينسجون حولها قصصا عاطفية تشوه سمعتها وتجعلها مناطا للسخرية بين الطلبة والطلاب أشارت على أبيها بالزواج من أبي الحسن إبقاء على عفتها وقطع أسباب الشكوك والاتهامات،[30] وفي حواراتها مع أبي الحسن ومقابلاتها معه طول الرواية لا تترك ذيل الحياء وتعتصم بالعفاف. وأبو الحسن هو الآخر يؤمن بالحب العفيف كما هو شأن الشاب المسلم المتدين. إلا إنه جعلها تخرج في الناس وتعمل في دار الصحيفة وحيدة بين الرجال، وتقوم خطيبة في الكلية وتخرج في المظاهرات وتضم إلى فرقة تبحث عن الزعيم بعد فشل ثورته، فهذه كلها أمور تتعفف منها النساء المسلمات الصالحات، ولا يشاركن فيها إلا بقدر الحاجة.

في مقابل ذلك وصف الكاتب الزعيم بالفجور والفسوق والدعارة كما قال على لسان زوجة الزعيم: وهي تدرك جيدا أن زوجها يحب أربعة أشياء الكأس والنساء والخطابة والشهرة. ولذلك تقول لها وهي تخاطبه: ألاعيبك لا تخفى عليّ وأنا أعرف نزواتك العديدة في المنظمة.[31]

والزعيم تلميذ مخلص وابن بار للثقافة الملحدة،[32] ليس لديه احترام للقيم الأخلاقية والمبادئ الإسلامية بل يسخر من الدين والاعتقادات الإسلامية، ويرى الدين هو العقبة الوحيدة في طريق التقدم،[33] همه الوحيد هو الحياة الممتعة، الحياة الممتعة بأي ثمن، يقيم هو وأصحابه مجالس رقص وفجور ومجون في قصورهم. يجتمعون فيها ويستدعون إليها البنات الجميلات من الحزب يراقصون ويشربون الخمور ويفعلون ما يحلو لهم من أفعال،[34] ولا يخجل من الرقص مع زوجات الآخرين، والاستمتاع بهن، بل يرى الجنس مسألة فيسيولوجية بحتة.[35]

والرئيس لا يقل عن الزعيم دعارة ومجونا، زوجاته يسافرن في رحلات إلى الخارج... ينفقن عشرات الألوف من الدولارات، قصوره عامرة بالتحف والمجوهرات والمتع المختلفة، حفلات الرقص الصاخبة يشترك فيها عديد من الشخصيات الكبيرة...[36] يرى المرأة أروع قصيدة في الوجود، ولديه ديوان ضخم منهن، يأمر الزعيم بإقامة الحفلة الراقصة الرائعة، وليس عنده احترام للقيم الفاضلة والأحكام الدينية.[37]

2 . الصدق والأمانة :

يصف لنا الكاتب فاطمة وأباها وأبا الحسن وغيرهم من أبطال روايته المسلمين بالصدق والأمانة، فهم كلهم لا يتركون خلق الصدق والأمانة وصفاء اللسان، فلا يعرفون الكذب، ولا يعرف الكذب إلى ألسنتهم سبيلا، ولا البهتان ولا الخيانة ولا الغدر إلى أفعالهم طريقا. فهذه الأخلاق هي من أصول الإيمان ومن صفات المسلم الحق، وهي من الواجبات الشرعية التي لا يكتمل الدين إلا بها.

وعلى جانب آخر نرى أنه وصف الزعيم وجماعته بالكذب والخيانة، فهم لا يتورعون عن التلاعب بالحقائق، ويستخدمون كل أساليب الكذب والخيانة في سبيل تحقيق أغراضهم الدنيئة، فالزعيم يلعب بعقول الشعب ويعدهم ويمنّيهم أمنيات كاذبة، يقلب الحقائق ويقدم تفسيرا محدثا للمصطلحات الشرعية مالا يؤيده العقل ولا الدين الحنيف، وجماعته ينشرون الشائعات والادعاءات الكاذبة ضد كل من خالفهم ويتهمونهم باتهامات كثيرة ويرمونهم بالبهتان لإثارة الغبار حولهم وتشويه سمعتهم كما وقع لفاطمة في كلية الآداب.[38] ورموا حاجي محمد إدريس الذي جاهد في الدفاع عن الوطن ضد الهولنديين وأبلى بلاء حسنا بأنه عميل الامبريالية والاستعمار، ولديهم نشاط سري ضد الحكومة والرئيس، وأذاقوه ألوانا من العذاب والسخرية والهوان ولم يراعوا شيخوخته وضعفه فقط لأنه ألقى خطبة في أحد المساجد، وذكر شقاء الشعب وبؤسهم وتكلم عن فساد الأحوال في البلاد وانحناءات النفاق وترديد الشعارات التافهة[39]. وأوضح الكاتب نجيب الكيلاني صورتهم القبيحة الخفية لهم من احتقارهم للدين والسخرية بالأحكام الشرعية والنظام الإسلامي وتسميتهم المسلمين المتدينين بالرجعيين وأنهم عقبة في طريق التقدم.

3 . الكرم والوفاء:

عندما أودع أبو الحسن في السجن، شعرت فاطمة بالمسؤولية تجاه أسرته، فانطلقت إلى بيته لتفقد حال أبويه العجوزين، وللقيام بخدمتهما، وأحضرت معها بعض الحاجات الأساسية من طعام وشراب، لتسد ما أمكن من حاجتهما، وتهون عليهما من مصيبتهما، مظهرة بذلك كرمها ووفاءها ونبل خلقها وصدق مودتها.

4 .الشجاعة والثبات :

يصور الكاتب كلا من فاطمة ووالدها حاجي محمد إدريس وخطيبها أبا الحسن على أنهم رموز في الصبر والثبات، ومثال يحتذى في الشجاعة والإيمان. فلقد واجهوا المحن بشجاعة نادرة، وأظهروا رباطة جأش تدهش القلوب وتمسكوا بمبادئهم تمسك الواثق بعدالة قضيته.

ففاطمة في إلقاء كلمتها أمام الزعيم ولقائها معه تظهر حكمة وثباتا وشجاعة، وتدافع عن مبادئها بكل قوة وثقة، وتحطم كل الادعاءات والوشايات والشائعات التي انتشرت حولها لتشويه سمعتها وإثارة الغبار حولها بقوة يقينها ورباطة جأشها وصلابتها .

وحين الهجوم على دار الصحيفة تبدي فاطمة همة عالية وشجاعة فائقة تدافع عن نفسها وتثأر للحارس العجوز وتقاتل مثل جندي وتجاهد حتى آخر لحظة حياتها، وهي في آخر صفحة من الرواية تدفع حياتها ثمناً لمبادئها فقد قُتلت برصاصة غادرة.

وهكذا فإن نجيب الكيلاني وصف المجتمع الإندونيسي بشقيه: شق شيوعي فاسد الأخلاق وقيمه الأخلاقية هي قيم نفعية مادية تقوم على المصلحة الفردية والأنانية ولا يهمها اتباع أي وسائل في سبيل تحقيق مصالحها. وشق آخر: هو المجتمع الإندونيسي المسلم، فقيمه هي القيم الإسلامية كالحياء والعفاف، والصدق والأمانة، والكرم والوفاء، والشجاعة والثبات.

خاتمة البحث

توصل البحث إلى أن هناك فرقاً واضحاً في القيم الأخلاقية التي أراد الكاتبان (جرجي زيدان ونجيب الكيلاني) أن يوصلاها من خلال روايتيهما "عذراء قريش" و"عذراء جاكرتا"؛ فجرجي زيدان صوّر المجتمع الإسلامي الحديث عهدٍ بالنبوة والرسالة، مجتمع الصحابة، مجتمعاً ضعيف الأخلاق، فيه غش وخداع وحسد وتهاون في سفك الدماء، وهناك تساهل كبير في جانب الحياء والعفاف عند المرأة، وعلى الجانب الآخر فقد صوّر نجيب الكيلاني المجتمع الإندونيسي المسلم مجتمعاً يقوم على قيم أخلاقية مستمدة من الدين الإسلامي، وهي الحياء والعفاف والصدق والأمانة والوفاء والكرم والشجاعة والثبات على الحق.

الهوامش

[1] – ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، ١٥ جزءاً، (بيروت: دار صادر، ٢٠٠٣م) ج ٥، ص ١٤١.

[2] – علي بن محمد السيد الشريف الجرجاني، معجم التعريفات، قاموس لمصطلحات وتعريفات علم الفقه واللغة والفلسفة والمنطق والتصوف والنحو الصرف والعروض والبلاغة، تحقيق ودراسة: محمد صدّيق المنشاوي، (القاهرة، ودبي: دار الفضيلة للنشر والتوزيع والتصدير، د.ط،ت) ص ٨٩.

[3] – علوي بن عبد القادر السقاف، مختصر موسوعة الأخلاق، (السعودية، الظهران: مؤسسة الدرر السنية، ط١، ١٤٤٠هـ – ٢٠١٩م) ص ١٠.

[4] – السيد محمد بدوي، الأخلاق بين الفلسفة وعلم الاجتماع، (مصر: دار المعرفة الجامعية، ٢٠٠٠م) ص ١٧

[5] – محمد يوسف موسى، مباحث في فلسفة الأخلاق، (المملكة المتحدة: مؤسسة هنداوي، ١٩٤٠م) ص ٩ و١٠.

[6] – أحمد أمين، كتاب الأخلاق، (القاهرة: مطبعة دار الكتب المصرية، ط٣، ١٣٥٠هـ – ١٩٣١م) ص ٢.

[7] – المائدة: ١٠٠

[8] – السيد محمد بدوي، الأخلاق بين الفلسفة وعلم الاجتماع، ص ٦٥.

[9] – خالد بن جمعة بن عثمان الخرّاز، موسوعة الأخلاق، (الكويت: مكتبة أهل الأثر للنشر والتوزيع، ط١، ١٤٣٠هـ – ٢٠٠٩م) ص ٢٢

[10] – ابن قيم الجوزية، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب، مدارج السالكين بين منازل "إياك نعبد وإياك نستعين"، ٣ أجزاء، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، د.ت)، ج٢، ص ٣٢٠ و٣٢١.

[11] – د. محمد عبد الله دراز، دستور الأخلاق في القرآن دراسة مقارنة للأخلاق النظرية في القرآن، تعريب وتحقيق وتعليق: د. عبد الصبور شاهين، مراجعة: د. السيد محمد بدوي، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ودار البحوث العلمية، د.ط،ت) المقدمة ص ي د.

[12] – جرجي زيدان، عذراء قريش (رواية)، من سلسلة تاريخ الإسلام، (القاهرة: دار الهلال بالاشتراك مع المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع) وهذه الطبعة من سلسلة روايات الهلال للأولاد والبنات، ص ٩.

[13] – المصدر نفسه، ص ٤٧

[14] – أيضا، ص ٩٢

[15] – أيضاً، ص ٦١

[16] – عذراء قريش، ص ١١

[17] – المصدر نفسه، ص ٣٢.

[18] – أيضاً، ص ٥٧

[19] – أيضاً، ص ٥٨

[20] – أيضاً، ص ٦٠

[21] – أيضاً، ص ٦٨

[22] – أيضاً، ص ٧٠

[23] – أيضاً، ص ٧٢

[24] – أيضاً، ص ٥٦

[25] – عنترة، ديوان عنترة، شرح: الخطيب التبريزي، تقديم ووضع الهوامش والفهارس: مجيد طراد، (بيروت: دار الكتاب العربي، ط١، ١٤١٢هـ – ١٩٩٢م) ص ٢٠٨.

[26] – عذراء قريش، ص ٩٢

[27] – عذراء قريش، ص ١٣٩

[28] – نجيب الكيلاني، عذراء جاكرتا، (رواية) من سلسلة تاريخ الإسلام، (القاهرة: كتاب المختار، ط:20) ص: 13.

[29] – المصدر نفسه، ص: 19.

[30] – أيضا ص: 24 و33.

[31] – أيضا ص:6.

[32] – أيضا، ص:16

[33] – أيضا، ص:10.

[34] –أيضا، ص:26

[35] –أيضا، ص:79.

[36] –أيضا، ص:29.

[37] – أيضا، ص:100-103.

[38] – المصدر نفسه، ص:12-15.

[39] – المصدر نفسه، ص: 66-69.

المصادر والمراجع:

القرآن الكريم

1. ابن قيم الجوزية، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب، مدارج السالكين بين منازل "إياك نعبد وإياك نستعين"، ٣ أجزاء، (بيروت: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى. بدون تاريخ)
2. ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، ١٥ جزءاً، (بيروت: دار صادر، ٢٠٠٣م)
3. أحمد أمين، كتاب الأخلاق، (القاهرة: مطبعة دار الكتب المصرية، الطبعة الثالثة، ١٣٥٠هـ - ١٩٣١م)
4. جرجي زيدان، عذراء قريش (رواية)، من سلسلة تاريخ الإسلام، (القاهرة: دار الهلال بالاشتراك مع المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع) وهذه الطبعة من سلسلة روايات الهلال للأولاد والبنات. بدون تاريخ.
5. خالد بن جمعة بن عثمان الخرّاز، موسوعة الأخلاق، (الكويت: مكتبة أهل الأثر للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م)
6. السيد محمد بدوي، الأخلاق بين الفلسفة وعلم الاجتماع، (مصر: دار المعرفة الجامعية، ٢٠٠٠م)
7. علوي بن عبد القادر السقاف، مختصر موسوعة الأخلاق، (السعودية، الظهران: مؤسسة الدرر السنية، الطبعة الأولى، ١٤٤٠هـ - ٢٠١٩م)
8. علي بن محمد السيد الشريف الجرجاني، معجم التعريفات، قاموس لمصطلحات وتعريفات علم الفقه واللغة والفلسفة والمنطق والتصوف والنحو الصرف والعروض والبلاغة، تحقيق ودراسة: محمد صدّيق المنشاوي، (القاهرة، ودبي: دار الفضيلة للنشر والتوزيع والتصدير، بدون تاريخ)
9. عنترة، ديوان عنترة، شرح: الخطيب التبريزي، تقديم ووضع الهوامش والفهارس: مجيد طراد، (بيروت: دار الكتاب العربي، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م)
10. محمد عبد الله دراز، دستور الأخلاق في القرآن دراسة مقارنة للأخلاق النظرية في القرآن، تعريب وتحقيق وتعليق: د. عبد الصبور شاهين، مراجعة: د. السيد محمد بدوي، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ودار البحوث العلمية، بدون تاريخ)
11. محمد يوسف موسى، مباحث في فلسفة الأخلاق، (المملكة المتحدة: مؤسسة هنداوي، ١٩٤٠م)
12. نجيب الكيلاني، عذراء جاكرتا، (رواية) من سلسلة تاريخ الإسلام، (القاهرة: كتاب المختار، الطبعة العشرون)